استعادة

قدري بريشتينا، 1920

أسهم الشيخ قدري بأفكار رائدة في النقاش الذي انطلق في السنوات الأُولى من عمر الدولة الألبانية حول العلاقة بين الإسلام والتخلّف/ التقدّم، والدعوة إلى التخلّي عن الإسلام بحجّة أنّه سبب التخلّف الموروث عن الحُكم العثماني

قدري بريشتينا انشغال بتخلّف المسلمين وأسبابه

وعيٌ مبكر بقضايا الإسلام في ألبانيا

محمد م. الأرناؤوط

تمرّ، العام المقبل، الذكرى المئوية الأُولى لرحيل المفكّر والسياسي الألباني قدري بريشتينا (1878 - 1925) الذي ينتمي إلى الجيل المخضرم الذي عايش أفول الدولة العثمانية وتأسيس الدولة الألبانية، والذي تخلّى عن لبس العمامة من دون أن يتخلّى عمّا كانت تُمثّله، وهو يُسهم آنذاك في تأسيس أوّل دولة أوروبية بغالبية مسلمة. وفي هذا السياق، أسهم بأفكار رائدة في النقاش العامّ الذي انطلق في السنوات الأُولى من عمر الدولة الألبانية حول العلاقة بين الإسلام والتخلّف/ التقدّم، والدعوة إلى التخلّي عن الإسلام بحجّة أنّه سبب التخلّف الموروث من الحُكم العثماني الطويل. وُلد قدري بريشتينا Kadri Prishtina في مدينة بريشتينا لتاجر صغير (لطف الله بريشتينا) عُرف باهتمامه بالحركة القومية الألبانية. وقد انخرط في المدارس العثمانية الجديدة التي كانت تؤسّس وفق النظام الجديد (الابتدائية والرشدية)، ثمّ التحق بالمدرسة الثانوية في أُسكوب عاصمة ولاية قوصوه (كوسوفو). وبعد تخرّجه أرسله والده إلى إسطنبول في خريف 1896 لمتابعة الدراسة، بسبب ما لمسه من اهتمام لديه، فانتسب إلى «دار المعلّمين»، حيث درس التربية وعلم النفس والتاريخ والأدب وغيرها. وقد شعر الشاب قدري بالحاجة إلى المزيد من الدراسة، فالتحق بـ«مدرسة الفاتح» المعروفة في المدينة، حيث نهل من العلوم الدينية (علوم القرآن والحديث والفقه...)، وأتقن العربية والفارسية، ولبس العمامة، فاشتهر من ذلك الوقت (1903) بلقب «الخوجه» أو الشيخ، ولم يكتف بذلك، بل إنّه في 1903 انتسب بالمراسلة إلى دراسة الحقوق، ونجح في الامتحانات المطلوبة حتى 1904، وحصل على لقب «أستاذ». ونظراً لما أبداه من تفوّق، عُيّن في محكمة التمييز التابعة لمجلس الدولة في إسطنبول. وخلال إقامته في إسطنبول، اتّصل الشيخ قدري بالنخبة الألبانية الموجودة في العاصمة (خوجه تحسين أوّل رئيس لجامعة إسطنبول وشمس الدين سامي صاحب قاموس «الأعلام» وغيرهما) التي أصبحت نواة للحركة القومية الألبانية المطالِبة بالحقوق الثقافية (الاعتراف باللغة الألبانية وحقّ التعلّم بها ونشر الكتب فيها)، والتي أصبحت الدولة تتابع بقلق امتدادها إلى الداخل البلقاني وارتباطها بالعمل المسلّح في السنوات الأُولى من القرن العشرين.

وفي هذا الإطار، أُلقي القبض على الشيخ قدري في نيسان/ إبريل 1904 بتهمة القيام بنشاطات معادية للدولة وأُودع السجن في «يدي قوله» بإسطنبول، حيث بقي هناك حتى الثورة الدستورية في 1908. ومع اندلاع الحرب البلقانية في خريف 1912 وخسارة الدولة العثمانية لمعظم أراضيها في البلقان، لم تتحمّل سلطة «الاتحاد والترقّي» نقده في الصحافة، فألقت القبض عليه وأرغمته على ركوب سفينة مغادرة لإسطنبول لنفيه خارج الدولة. وبعد رحلة طويلة مع هذه السفينة قادته إلى موانئ فلسطين ومصر ورومانيا، وصل إلى ميناء دورس Durrës الألباني في ربيع 1914.

وصل الشيخ قدري إلى ألبانيا في وقت مضطرب. فقد كان زعماء الألبان قد أعلنوا الاستقلال في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912 في مدينة فلورا Vlora الساحلية، المدينة الوحيدة التي بقيت خارج احتلال الجيوش البلقانية، ولكنّ مصير ألبانيا (وحدودها) بقي معلّقاً بين خلافات الدول الأوروبية المعنية (النمسا وإيطاليا وروسيا وبريطانيا) إلى أن جرى التوصّل إلى حلّ وسط في صيف 1913 يتمثّل بدولة ألبانية مستقلّة تشمل حوالى نصف الألبان وتُبقي النصف الآخر في الدول المجاورة التي توسّعت نتيجة للتسوية الجديدة (صربيا والجبل الأسود واليونان). وهكذا وجد الشيخ قدري نفسه في «دولة قومية ألبانية» كان يحلم بها مع مجايليه، ولكنّ موطنه (كوسوفو) بقي خارج هذه الدولة، بعد أن تقرّر ضمّه إلى صربيا حسب التسوية المذكورة. ومن ناحية أُخرى، كانت الدول الأوروبية الكبرى قد أعلنت تعيين الأمير الألماني وليم فون فيد W.von Wied مَلكاً على ألبانيا، التي أصبحت تحت انتداب الدول المذكورة بإشراف «لجنة الرقابة الدولية»، التي وضعت أوّل دستور لألبانيا في نيسان/ إبريل 1914 أصبحت ألبانيا بموجبه دولة علمانية.ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى انهارت «مملكة ألبانيا» وأصبحت أراضيها تحت احتلال عدّة جيوش وبرزت بعد الحرب عدّة جهات تدّعي تمثيلها. وقد شارك الشيخ قدري في مؤتمر الإنقاذ القومي الذي عُقد بمدينة لوشنيا Lushnja عام 1920 بهدف تشكيل حكومة تُمثّل الألبان وتُنقذ ألبانيا من المخاطر التي تُهدّدها. وقد اختير الشيخ قدري من قبل المؤتمر وزيراً للعدل في الحكومة الجديدة، تقديراً لمكانته في الحركة القومية الألبانية.

وفي آذار/ مارس 1921، شارك الشيخ قدري في أوّل انتخابات برلمانية في ألبانيا، وفاز فيها عن المدينة التي استقرّ فيها (شكودرا Shkodra) القريبة من موطنه الأصلي (كوسوفو). وفي البرلمان الألباني الجديد، الذي انتُخب فيه نائباً للرئيس، كان فيه المعمّم الوحيد. وقد عُيّن، بعد أن تخلّى عن العمامة، وزيراً للعدل في حكومتين لاحقتين، كذلك أُعيد انتخابه للبرلمان الجديد (المجلس الدستوري) في خريف 1923، حيث اختير عضواً في اللجنة التي كُلّفت وضع دستور جديد لألبانيا. وخلال هذه الفترة توجّه إلى الصحافة؛ حيث أصدر مجلّة «سبيل الحقيقة» وأخذ ينهمك في الكتابة والسياسة، ما أثّر بصحته في نهاية 1923 وطوال 1924 و1925 وأودى به في 20 كانون الأوّل/ ديسمبر 1925. بقي قدري بريشتينا شبه غائب في موطنه الأصلي بسبب مطالبه بضمّ كوسوفو إلى ألبانيا، ولكن بعد قيام التعدّدية السياسية في يوغسلافيا السابقة في نهاية 1989، بدأت الصحف والمجلّات ودور النشر تنشر الكثير عنه. وفي هذا السياق، صدر عنه في 1992 أوّل كتاب لأكبر سكندي بعنوان «الخوجه قدري بريشتينا»، وفي عام 2000 صدر كتاب آخر بعنوان «الخوجه قدري بريشتينا» لكمال مورينا. يختلف الكتاب الثاني عن الأوّل في كون المؤلّف كمال مورينا (1951 - 2019)، الأستاذ في «كلّية الدراسات الإسلامية» ببريشتينا، أوّل من كشف عنه مفكّراً إسلامياً حداثياً معنيّاً بمواجهة الأسئلة الكبرى المطروحة عن علاقة الإسلام بالتخلّف الموروث والدعوة إلى التخلّي عنه للحاق بالتقدّم الأوروبي بالاستناد إلى مقالاته في جريدته «سبيل الحقيقة»، التي نشرها في مجلّة «المعرفة الإسلامية» خلال 1997، وأعاد نشرها ضمن كتابه الجديد الذي حظي بالاهتمام. ففي مثل هذا الوضع الانتقالي في ألبانيا المستقلّة، وفي مثل هذا المناخ الفكري/السياسي بين التركة العثمانية والحداثة الأوروبية وجد قدري نفسه مدعوّاً إلى المساهمة في خوض النقاش الدائر حول الإسلام وثنائية التخلّف/التقدّم، معتمداً في ذلك على تكوينه العثماني وتراثه النضالي الذي جعل منه اسماً محترماً، ودوره السياسي الجديد (في البرلمان والحكومة)، ما كان يؤهّله أكثر من غيره لذلك. ويبدو أنّ قدري أراد لذلك أن يسمّي جريدته التي أنشأها آنذاك (1923) باسم «سبيل الحقيقة» لكي يعبّر عمّا يريد أن يقوله في هذا المجال. ويلاحَظ هنا أنّه وضع تحت العنوان ما يشير إلى أنّ «سبيل الحقيقة» هي «مجلّة دينية سياسية أدبية»، وهو ما له مغزاه في ذلك الوقت. فباعتباره من النخبة المثقفة المسيّسة، كان الشيخ قدري يريد أن يؤكّد أنّ المسلمين في ألبانيا الجديدة يحتاجون إلى أكثر من مجلّة دينية (تقتصر على شؤون الدين) لكي يعيشوا العهد الجديد (ما بعد العثماني/ الأوروبي الحديث) الذين وجدوا أنفسهم فيه ضائعين وسط التجاذبات والتماوجات بين ثنائية التخلّف والتقدّم.

خصّ بالانتقاد من سمّاهم «أنصاف العلماء» و«أدعياء الثقافة»

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

النص الكامل
على الموقع الإلكتروني

صوت جديد

كتابةٌ ترسم أفقاً جديداً

سها مصطفى

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح الجيل العربي الجديد من الكتّاب وانشغالاتهم

سها مصطفى

اللاذقية ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلكِ هذه الأيام في ظلّ ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

ثمّة توحّش مخيف داخل النفس البشرية، نكتشفه اليوم في صراع يزداد قتامةً وسط عالم متحوّل يرى الحقائق، لكنّه لا يملك الأدوات لفعل شيء، أو الأسوأ والأدقّ أنّه يملك ولا يفعل شيئًا. نحن نهجس بهموم بلداننا أيضًا، فالعالم العربي للأسف أغلبه ليس بخير من سنوات خلت.

■ كيف تفهمين الكتابة الجديدة؟

لغة السبعينيات ليست كلغة اليوم أدبيًا، وصراعات الثمانينيات الفكرية والستينيات والقرون السابقة تختلف في ما بينها. إذن اللغة حيّة، تتنفّس وتتطوّر معنا في طريقة استخدامنا لها، الكتابة الجديدة ترسم أفقًا جديدًا في التعبير والبناء السردي، لعلّها بانت أكثر رمزية وإيجازًا وواقعية، لكن أُضيف: ثمّة نصوص لها ألقها الدائم، لا تقع تحت خانة القديم أو المحدث، وهنا تكمن فرادتها.

■ هل تشعرين بأن نفسك جزء من جيل أدبي له ملامحه، وما هي هذه الملامح؟

لا أُقرن نفسي بأيّ جيل أدبي، أُفضّل الفردية دومًا، وأعتبر كلّ ما أقوم به تجربة في الأفلام والمسلسلات والرواية.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟

أتعامل باحترام مع الأجيال السابقة، ولكن بلا أيّ تقديس.

■ كيف تصفين علاقتك بالبيئة الثقافية في بلدك؟

جيّدة. عملتُ في الصحافة بكلّ تنوّعها قبل كتابة الأفلام، وجزءٌ من مجال تحقيقاتي كان حول قضايا الفساد وحول انتشار التطرّف في سورية، ما سمح لي بالتواصل مع عدد من المثقّفين السوريّين المهمّين في مجالات الرواية والتشكيل والدراما.

■ كيف صدر كتابك الأول وكم كان عمرك؟

أرسلتُ مخطوطة الرواية إلى الجميلين في «دار نوفل» اللبنانية، وأُعجبوا بها، وهكذا صدرت، أسعدتني تجربة النشر معهم؛ لكونهم يُقدّرون الكتّاب جيّدًا، وهي دار عريقة تضمّ محرّرين مهنيّين؛ أذكر من بينهم روان عز الدين وجنان جمعاوي، والمديرة رنا حايك، إضافة إلى أنّها تنشر لكتّاب عرب مهمّين. مسألة الأعمار لا تعنيني؛ فهي مجرّد أرقام، لكن يمكن القول إنّ العالم العربي بات يهتمّ بالكتّاب الشباب أخيرًا.

■ أين تنشرين؟

مع موقع «النهار العربي» وغيرها.

■ كيف تقرئين وكيف تصفين علاقتك بالقراءة: منهجية، مخطّطة، عفوية، عشوائية؟

أقرأ الروايات بلا أيّ تخطيط وبفضولٍ كبير؛ فإمّا أنْ تشدّني الرواية، وإمّا أن لا داعي للقراءة وإضاعة الوقت. أنتقي العناوين من أشخاص أثق بذائقتهم وليس بناءً على رأي «النقّاد». وبناءً على تقييمي للقراءة الأُولى، قد أقتني كتابًا ثانيًا للكاتب أو الكاتبة أو لا أكرّرها.

■ هل تقرئين بلغة أُخرى إلى جانب العربية؟

الإنكليزية أحيانًا.

■ كيف تنظرين إلى الترجمة وهل لديك رغبة في أن تكوني كاتبة مترجَمة؟

الترجمة عالم ثانٍ. أن تتذوّق أدبًا آخر بنكهته الأصلية هي تجربة تستحقّ التضحية بكثير من الوقت في سبيلها، لكنّنا لا نملك هذا الترف حاليًا. طبعًا كلّنا نرغب في ترجمة أعمالنا، وآمل ذلك.

■ ماذا تكتبين الآن وما هو إصدارك القادم؟

أقرأ وأكتب مقالات للصحافة.

بطاقة

كاتبة وسيناريست سوريّة من مواليد دمشق، تعمل في الصحافة منذ 2007، كتبت سيناريو فيلم «غرفة افتراضية على السطح» (2012)، وشاركت في فيلم «مطر السينمائي» (2016) والمبنيّ على سيناريو لها بعنوان «وقتٌ للاعتراف». صدرت لها هذا العام رواية بعنوان «اللعنة» (2024).

معرض

بيتر كينارد فنّ ضدّ الرأسمالية والاستعمار

احتجاجٌ لم يتوقّف منذ خمسين عاماً

يستعيد المعرض، المُقام حالياً في لندن، خمسة عقود من تجربة الفنّان البريطاني الذي لم يفصل فيها بين نشاطه السياسي وعمله مصوّراً فوتوغرافياً

لندن ـ **العربي الجديد**

علَمٌ فلسطيني ينزّ من قاعدته المثلّثة الحمراء خطٌّ متعرّج من الدم القاني، في «غاليري وايت شابل» اللندني، إلى جوار ملصقات وأعمال تركيبية تُدين حرب فيتنام وغزو العراق والتسلّح النووي وغيرها من القضايا التي شغلت الفنّان الفوتوغرافي والناشط البريطاني بيتر كينارد لأكثر من خمسة عقود. يجمع الغاليري مختارات من صور وملصقات وأغلفة كُتب ومطبوعات ضمن معرض «أرشيف المعارَضة»، الذي افتتح في الثالث والعشرين من الشهر الماضي، ويتواصل حتى التاسع عشر من حزيران/ يونيو 2025. تحتوي مساحة العرض ثلاثة معارض تُضيء التاريخ الاجتماعي والسياسي لممارسة فنية قدّمتها شخصية انخرطت في المظاهرات ضدّ التدخّل العسكري الأميركي في فيتنام، حيث تحوّل منذ بداية السبعينيات من الرسم إلى المونتاج الصوري لمعالجة آرائه السياسية بطريقة أفضل. لم يفصل كينارد بين نشاطه السياسي، وعمله مصوّراً فوتوغرافياً لمئات من حركات الاحتجاج في بريطانيا والعالم، وموقعه الأكاديمي أستاذاً للفنّ السياسي قي «الكلّية الملكية للفنون»، وقبل ذلك في «كلّية لندن الجامعية» و«مدرسة سليد للفنون الجميلة»، والتي يُنظر إليها بصفتها مسارات متعدّدة في سياق التغيير الاجتماعي. واحدة من أبرز القضايا التي خصّص لها مجموعة كبيرة من الأعمال، كانت الحرب الأميركية على العراق عام 2003، والتي وصفها الناقد البريطاني جون بيرجر بأنّها «صور ثابتة للحزن، وفي الوقت نفسه مليئة بسخرية التاريخ وغضبه إزاء الأخطاء التي ارتُكبت باسمه»، وتُعد نموذجاً لمواجهة الصمت، وتُذكّر بالحاجة إلى الاحتجاج. واستخدام الفوتوشوب، قدّم كينارد عملاً عام 2003 يُبرز رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير وهو يلتقط صورة شخصية على خلفية من النفط المحترق. وبعد نحو عقدين، واصل تقديم أعمال تدعو إلى وقف فوري للحرب الإسرائيلية على غزّة، في واحد منها يضع رأس هيكل عظمي مثبّت فوق علم فلسطيني على حجر، في إشارة إلى الإبادة المتواصلة. تعكس الأعمال المعروضة ممارسة بصرية فريدة من نوعها تربط بين الفنّ والسياسة لمجموعة واسعة من الجماهير، وفق رؤية تستند في جانب منها إلى «تفكيك الصور المألوفة والمنتشرة في كلّ مكان، وإعادة تصوُّرها من مقاييس ومواصفات مختلفة، من أجل الكشف عن العلاقة بين القوّة ورأس المال والحرب وتدمير كوكب الأرض، وإظهار إمكانيات جديدة تنبعث من الواقع القديم»، بحسب بيان المنظّمين.

في أرشيف كينارد، لا يمكن حصر القضايا التي يتناولها، وهو الذي اشتبك مع الواقع الذي تصبح فيه الاحتلالات والاستغلال الطبقي وتلويث البيئة والهيمنة على الفضاء العام في الغرب عوارض لأزمة واحدة، حيث يشاهد الزائر ملصقات حول الإعلام المنحاز إلى الإمبريالية وفي مقدّمته وسائل الإعلام التي يمتلكها روبرت مردوخ. يتضمّن المعرض، أيضاً، أعمالاً يستخدم فيها الضوء والزجاج والإسقاط لاستكشاف حدود المونتاج الفوتوغرافي، بالإضافة إلى تقنيات أُخرى تتعلّق بإعادة تصنيع الصور والمطبوعات في أعمال جديدة، بوصفها تنويعات تهدف إلى سدّ الفجوة بين التعبير الفنّي والنشاط السياسي.

يقول كينارد في تقديمه للمعرض: «ينبع فنّي من الغضب، من حقيقة أنّ البحث عن الربح المالي يحكم كلّ زاوية وركن من مجتمعنا. يُخفي الربح الفقر والعنصرية والحرب وكارثة المناخ وما إلى ذلك.. يجمع ‹أرشيف المعارضة› خمسين عاماً من العمل الذي يحاول التعبير عن هذا الغضب من خلال تمزيق الأقنعة عن طريق القطع والتمزيق والمونتاج والمقارنة بين الصور التي نُقصف بها جميعاً يومياً. إنّه يُظهر ما يكمن وراء القناع: الضحايا والمقاومة والمجتمع البشري الذي يقول ‹لا› لسلطة الشركات والدولة. إنّه ينتقد إهدار الأرواح الناجم عن تريليونات الدولارات التي تُنفق على تصنيع الأسلحة والأرباح الهائلة التي تحقّقها شركات الأسلحة».

فنّ يُعبّر عن الضحايا والمقاومة والمجتمع الذي يقول لا

من المعرض

إطلالة

دوائر العميان

عباس بيضون

«دوائر العميان» عنوان رواية للكاتب المصري مصطفى موسى. ما يدعوني إلى التشديد على مصرية الرواية هو أنّ الرواية، التي تكاد تكون مبحثاً أنثروبولوجياً، والتي تنمّ عن معرفة عميقة بعالمٍ أفريقي ركيزته مالي باسمها هذا الذي صار لها اليوم. نحن في الرواية نمخر وسط جغرافيتها وعشائرها وتقاليدها وثقافاتها وواحاتها وأجوائها. نمخر في هذا العباب بدقّة مرسومة، خطوةً فوق خطوة، بحيث لا نجادل في أنّ الرواية تصدر عن هذا العالم، بل تبدو من رجعه وصداه وعبارته وأشيائه.

قد تكون هذه القربى الحميمة أجلى ما فيها، وقد تكون مناخاً وجوّاً وبناءً من خلاصاتها. نقرأ أفريقيا والساحل الأفريقي في هذه الرواية (دار نوفل، 2022)، فلا نرتاب في أنّنا من الصميم منها، وأنّها بحقّ درس بل وثيقة عنها. الأرجح أنّ ما يستلفتنا في الرواية يضلّ بدرجة أُولى هذا العالم، الذي يفاجئ ولا يفاجئ، وله في الحالين اختلافه وخصوصيته، وله هذا الصدى الذي يمتدّ عبر تاريخه ويتوالى فيه، ويبني مرحلة على مرحلة، وحقبة على غيرها، ما هو حقيقته ولعنة تاريخه. لا يمكننا في هذه العجالة أن نختصر الرواية، التي تتلاحق حكاياها، وتتناوب شخصياتها في قصص بلا عدد، تتقاطع ولا تتقاطع، لكنّنا نظلّ، على طول ذلك، في إحساس بأنّها تجتمع وتتخاطب وتتجاوب وترتصف في واقع له تركيبه، وله زمنه، وله بنيانه ورجعه. في البداية التي تصدر، كما يتراءى، عن حقيقة لها وزن التاريخ. نعثر على الفقهاء والدراويش، هذا واقع لا نجهله، لكنّنا قلّما نبدأ منه، بل قلّما نرى فيه تاريخاً. إنّنا، إذ ندخل إلى عالم الفقهاء والدراويش، نفهم أنّ هذا لن يكون جانبياً ولا هامشاً فحسب. نفهم أنّ هذه المقابلة، بل هذا التعاكس، ليسا شبحيّين ولا مجرّد ظلال. سرعان ما ننفذ منهما إلى عالم يصل بسرعة إلى الحروب والدول والنزاعات القبلية، من دون أن يحول الأصل البدوي دون قيام مشروع اجتماعي، بل دون قيام دولة لها هيمنتها ونظامها.

نواجه الدراويش والفقهاء وإن كنّا نترسّم أكثر حراك الفقهاء، الذين لهم ضلع في مشروع الدولة وفي بنيانها. الفقهاء ليسوا فقط درجات في السلطة، درجات لا تخلو من تنافس وتنازع، لكن لهم أيضاً سيَرٌ شخصية، لها شطحها ومبالغاتها. لا نستغرب أن نرى الفقيه يسطو على الحدّاد، ويحرمه من زوجته، ثم نحن لا ندين الحدّاد ذا العين الواحدة، ونحن نراه يترصّد الفقيه من مكان إلى آخر، إلى أن تسمح له الظروف بأن يغرس خنجره في هامته. هكذا نرى أيضاً فقيهاً زائفاً، قد يكون بطل الرواية أو أحد أبطالها. نستطيع أن نراه يرقى من السجن الذي دخله من دون ذنب يُذكر، إلى وظيفة قاضي الدولة، ويغدو صهراً لركن فيها، إلى أن يعود منفياً إلى واحة، بعد أن مدّ يد المساعدة لمن غصبه امرأته، حين كان الاثنان في الواحة الأُولى. نحن هكذا لا نقرأ سيَر أشخاص منظورين أو هامشيّين فحسب، لكنّنا نقرأ حراك مجتمع وتحوّلاته، بل نشعر بالتاريخ ينفذ من بنيانه، من دون أن يحوّل فيه إلّا ما يتراكب في الزمن والثقافة والإرث والتقليد. هكذا نُفاجأ في واحد من مناحي الرواية، بكلام عن قطارات وحتى عن طاقة شمسية، هكذا نشعر بظلّ العصر، لكن بما يتقاطع مع الإرث والتقليد. يمكننا هكذا أن نقرأ تاريخاً، لكن نترسّمه وهو ينفرط إلى سلسلة من الحكايا، نقرأ تاريخاً من دون أن يكون له نموذجه، ومن دون أن يكون له مساره. لسنا هكذا أمام تاريخ من أيّ نوع، أو نظر ما إلى التاريخ. إنّنا أمام بساط تاريخي، أمام تفاعل وحركة مبعثرة وسلسلة من الحكايا، التي تنقل نبض الواقع من حي إلى حي، ومن بيت إلى بيت.

هكذا لا نستغرب دوائر العميان، بل نشعر أن شتاتها وحكاياها نابضة بما يلتمع وينعقد في أطراف الواقع وتفاصيله، وبما يبدو من بعيد، تلاحماً، بل تماسّ بين الحكايا وما بعدها، وما تُطلّ عليه ويصدر عنها، ربما لذلك يغدو الواقع ساخناً وحارّاً، أي يبدو نفسه أكثر فأكثر.

لذا لا يفاجئنا مثلاً أن نرى هذه البداوة عامرة بالفضائح، فإلى جانب الدراويش والفقهاء هناك الغانيات وهناك الدعارة المفتوحة، هكذا يسعنا أن نجد الواقع بأكثر من وجه، وبأكثر من مناخ.

(شاعر وروائي من لبنان)

فعاليات

يستضيف «غاليري الأورفلي» في عمّان، عند السابعة والنصف من مساء غدٍ الاثنين، المعماري والباحث العراقي **إحسان فتحي** لتقديم محاضرة بعنوان **بغداد ... أيام زمان؛ جولة مصوّرة مع عوائلها العريقة**. يضيء فتحي، الذي يمتلك أرشيفاً فوتوغرافياً للعاصمة العراقية، المجتمع البغدادي في النصف الأوّل من القرن العشرين.

تُطلق «المؤسّسة العامّة للحي الثقافي- كتارا» في الدوحة، بعد غدٍ، معرض **لوحة الكون- معرض فنون الفضاء**، والذي يتواصل حتى العشرين من الشهر المقبل. يضمّ المعرض أعمالاً أصلية مطبوعة من «إدارة الطيران والفضاء الوطنية» في قطر و«وكالة ناسا» الأميركية، وأعمالاً تنتمي إلى فن الهولوغرام للفنّانة الإيرانية **مريم هشمي**.

الحرب الصامتة: السجون الإسرائيلية في ظلّ الإبادة عنوان ندوة ينظّمها «مركز خليل السكاكيني الثقافي» في رام الله، عند السادسة والنصف من مساء بعد غدٍ الثلاثاء، بمشاركة المحامية **جنان عبده** والأسيرة المحرّرة **يارا أبو حشيش**، وإدارة الباحث **باسل فراج**، و تنظيم مشترك مع «مؤسسة الدراسات الفلسطينية».

حتى الثامن والعشرين من الشهر الجاري، تتواصل فعاليات الدورة الثانية والثلاثين من **مهرجان القلعة الدولي للموسيقى والغناء** في القاهرة، والذي افتتح الخميس الماضي. من بين الموسيقيّين المصريّين المشاركين: **مصطفى حلمي**، و**عمر خيرت**، و**ناير ناجي**، و**أحمد عاطف**، و**علاء عبد السلام**، و**أحمد عامر**، و**عمرو سليم**.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي

نصوص الحياة والحرب من غزّة

طلعت قديح كاتب

حياة لاجئ بين المعاناة والتأمل

رغد فتاةٌ جميلة الملامح تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، تقف في طابور من الفتيات، حاملة بيدها آنية لتعبئة الطعام، الذي يطبخه عمال «التكية» في مخيم للاجئين. لم تعتد رغد أن تذهب إلى هناك، إلا أن أخاها الأصغر ذهَب مع والده لإحضار كابونة من مقر فرعي لوكالة الغوث وتشغيل اللاجئين المعروفة بـ «أونروا»، والآخرون مشغولون في بيع بعض المعلبات وأكياس الأندومي وعصائر. في لحظةٍ مباغتة، فُتح باب المطبخ وتدافع الجمع، ليأخذوا وجبتهم المطبوخة من المعلبات أو المعكرونة أو العدس، أرادت رغد أن تكون في طابور منتظم، لكن في تدافع كهذا لا يمكن ذلك، وفي لحظة أخرى توقفتْ وأزيح جسدها إلى خارج الطابور، أغمضت عينيها، تفجرت دمعة، أحسّت بفداحة خطأها بوقوفها في الطابور منذ البداية، ورجعت إلى خيمة عائلتها.

مطأطئة رأسها، وعلامات الحسرة بائنةٌ على وجهها، نظرت إليها أمها قائلة: ما بك يا رغد، وأين الطعام؟

أجابت بصوت متحشرج: لم آتِ بشيء، لكني امتلكت شيئاً آخر أهمّ من الطعام؟ أشارت أمها بيدها بحركةٍ كمن يفتح صنبور ماء، أجابتها رغد: عدتُ ومعي كرامتي.

لعل هذا المشهد المتكرّر يختزل شيئاً من معاناة الشعب الفلسطيني في غزّة، الذي يعاني من حرب أكلت الأخضر واليابس، وسرقت أحلام مليُوني نسمة من سكان قطاع غزّة، وأزهقت أرواح الأكرم منا جميعاً، هو مشهد يلوّح بالمعضلة الرئيسية بيننا نحن الفلسطينيين وبين الكيان الصهيوني، فلولا الكرامة لما صار الصراع منذ عشرات السنين، ولما حدث ما حدث، ولكان يمكن حل القضية بما يسمى «السلام الاقتصادي» وانتهى إلى تعايش مذل بين الجلّاد والضحية.

■■■

الناس في غزة لم يذوقوا طعم النوم المعتاد منذ بداية الحرب في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول، في غزة حال الترقب هو الحال العام في خلد كل غزّي، ترقب منذ الاستيقاظ من النوم المتقطع، يبدأ هذا الترقب على صوت بائع المياه: (ميه حلواااااا) بمدّ الكلمة بشكل متعمدٍ مع نداء صارخ، غير آبه لقربه من خيم النازحين أو بعده عنها، ينفجر صوته، فيهرع أحد النائمين المكلفين ملء غالون ماء للشرب ليوم واحد، وتكلفته أربعة شواقل، ينتهي ترقب أول ليظهر ترقب آخر بالانتظار في طابور لتعبئة المياه المالحة وتستعمل لحاجيات كثيرة إلا شربها. طابورٌ طويل كأن الواقف يمشي كسلحفاة، وعليه الانتظار فقط.

يمارس الناس في الصباح عادة لم تكن منتشرة قبل الحرب، فتحية الصباح مثلاً كانت مقتصرة على المعارف والأصدقاء أو زملاء العمل، أما في المخيم، فالتحية واجبة، ليس لأنها نوع من أنواع البرستيج، بل لكونها مادة حياة، وتبثّ بعض الأمل في شيء لا يعرفون متى سيأتي، وتختلف وتتعدد الصباحات من جمع لجمع، فهناك من يقولها: «صباح الخير» وآخر «يسعد صباحك» وآخر «ع العافية» وهكذا...

هل نحن هنا حقاً؟ هل ما حدث هو حقيقة أم مجرد فيلم أكشن؟ كيف يحدث هذا في عام 2023 وما زال مستمراً في عام 2024؟ وهل يستحق ما حدث في السابع من أكتوبر أن يحدث ما بعده؟

أسئلة تتدافعها ألسن الناس بعد التخفف من أعباء اليوم المرهق جسدياً ونفسياً، فحياة الغزّي في الحرب مثقلة بأعباء جمّة، ما بين تأمين احتياجات اليوم وما بين التخطيط لاحتياجات اليوم التالي، والمفارقة أن لا أحد يضمن أن يعيش ليوم تالٍ!

إلى أين؟ سؤال يطرح مرّات عديدة على مسامع اللاجئ، والإجابة متعددة، لكنها تصبّ في حياة اللّاجئ، إلى مندوب الوكالة، إلى «التكية»، إلى شحن الجوالات، إلى السوق، إلى.. إلخ، أصبحت الـ«إلى» تعني الجري وراء أي شيء يعين اللّاجئ الذي ما زال حيًا منذ أشهر طوال، ولم يدخل جيبه شيء من المال، لقد تُرك وحيداً دون معين، تعصره الأيام والليالي عصراً دون رحمة. لم نكن نرى قبل الحرب عجوزاً تحمل غالوناً وتقف في طابور المياه، بات كل إنسان يحمل غالوناً واقفاً في دوره في الطابور، وكأن حياة الغزّي أصبحت عبارة عن طوابير تتفنن في إرهاقه الجسدي والنفسي.

■■■

أجلس خارج الخيمة التي تتحول إلى جهنم مصغرة عندما تلوّح حرارة الجو بالارتفاع، مستظلاً بمكان لا يكفي جسدي الضئيل، ممسكاً بكتاب، أمارس معه حياة القراءة، ينظر الناس إليّ، منقسمين إلى فريقين: فريق مستغرب وكأنه يقول: أهو وقته في ظلّ الموت أن تقرأ؟ وفريق آخر يستغرب بطريقة أخرى بالقول بصوت مسموع: يبدو أنك بعت الدنيا، واشتريت عقلك! وبين هذا وذاك، أعترفُ بأن القراءة في فوهة الموت فعل حياة وأمل وهروب مستحب؛ فعل حياة، لأنه يحاول مساعدة النفس في تمضية وقت مفيد، ويحرك العقل الذي أثقلته الواجبات، وفعل أمل لأنني به أحسّ أنني ما زلت حيّاً، وأما فعل الهروب، فإنني أهرب مما أرى من تهافت الناس إلى سد احتياجاتهم بأية طريقة، مشروعة أو غير مشروعة، وهذا يضع علامة استفهام كبرى عما وصل إليه الحال منذ بدء الحرب على غزة، الحرب التي بعثرت حياتها وصرنا أسارى للترقب وكثير من المنغصات المعتادة والمفاجئة والمستحدثة!

بين البيت والخيمة.. صراع وجودي. وجود الإنسان في بيت يعني الأمان بالدرجة الأولى، جدران ومساحة رحبة، ومناظر جميلة، طريق ممهد، وغيرها من مميزات مسمى «البيت».

وأما وجود إنسان في خيمة، فهذا يعني الكثير، وليس معنى «الكثير» أنه الكثير من المميزات، بل هو الكثير المرهق المثقل المتزامن مع أعباء الحرب، أن يلف النايلون مكاناً لتربية الدواجن أو المنتجات الزراعية، فهذا أمر تتطلبه الزراعة مثلاً، لكن أن يكون من بداخل النايلون أناس، فهذا يعني أن الحالة أبشع من أن توصف، خيمة يلفها النايلون شتاءً وصيفاً! فضلاً عن انعدام الخصوصية، فيحسّ النازح أنه يتحدث في مايكروفون، فهو واقعياً يتحدث في العراء، لا حاجز للصوت سوى نايلون! ولا مسافة بين كل خيمة وخيمة إلا متران على أقصى تقدير، وهناك مسافة تصل إلى متر، لم تعد المناطق المسماة «آمنة» تتسع لأعداد ضخمة، أين يذهب الناس! وهل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ لا بالطبع، فمنذ أيام قُصف مكان تجمع اللاجئين في منطقة «البركسات» في مدينة رفح، لم تقصف مبانٍ أو حوائط، قصف بشر يسكنون الخيام! صواريخ أميركية التهمت لحم النازحين، وهتكت ستر الصمت ليلاً، فأحالت المنطقة إلى نار ملتهبة!

يجلس يوسف وهو شاب يحكّ أظفاره بأسنانه، يفكر في الذهاب إلى بيتهم الذي قصف مرتين، لكنه ما زال واقفاً، يفكر في الذهاب للاطمئنان إلى محتوياته، ضوء يشجعه على زيارته، فحجز مقعداً في سيارة نقل لتقله إلى بيتهم، فيما عتمة تحاصره بظنون الخطر، وغلبة الوضع الأمني الصعب، وما يمكن أن يحدث من مفاجآت غير سارة. يمكن أن يدفع حياته وبيته ثمناً لزيارة عابرة لبيتهم.

التأقلم، حاجة ملحّة أم إبداع طارئ؟

■■■

منذ بداية الحرب، وتحديداً بعد هدنة الأسبوع، لم يكن أمام الناس إلا التأقلم على واقع مرير، لمقتضيات العيش، كان هذا الأمر بديهياً، فغريزة البقاء هي الغريزة الأقوى لدى الإنسان العادي، فما بالكم بإنسان يتعرّض لأبشع أنواع التقتيل والتنكيل؟ بدأت بسطات المعلبات والبسكوتات تنتشر في الشوارع، وبسطات الفلافل ومختلف المُنتَجات التي أساسها المساعدات الغذائية عبر معبر كرم أبو سالم التجاري، وخلال تدفق المساعدات، كانت «أونروا» العمود الفقري لإغاثة النازحين، لكل شخص متزوج موجود في قطاع غزة، وهذا استدعى تقسيم العمل الإغاثي على شكل تقسيمات مناطقية ومن طريق مندوبين لتسهيل المهام وسرعة التوزيع.

أرجوحة الهدنة... واقع وأمنيات؟

وجود إنسان في خيمة، فهذا يعني الكثير، الكثير المرهق المثقل المتزامن مع أعباء الحرب

«بقولوا»... هي الكلمة الأكثر شيوعاً، يتداولها سكان قطاع غزة في ظلّ صعوبة الاتصال وانعدامها أحياناً أخرى، وتعطل شبكة الإنترنت، أصبحت «بقولوا» محرك غوغل الشعبي عند أهل غزة، تساهم هذه الكلمة في انتشار أخبار صحيحة وأخرى كاذبة، وأخرى منقوصة.

وأكثر تلك الأخبار التي تهمّ الناس، أخبار الهدنة بين غزة وإسرائيل، عشرات المحاولات مقترنة بأمنيات التحقق على الأرض وانتهاء الحرب، وهو الخبر الأكثر سخونة وانتظاراً للتحقق، الألسن في كل مرة تلهج بالدعاء أن يتم ذلك، حتى تنقضي أقسى صفحة من تاريخ الشعب الفلسطيني. لم تقتصر الحرب على غزة فقط، فقد كان للضفة الغربية نصيب كبير من القتل والتنكيل بالمواطنين من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي، حتى باتت المشاهد المؤلمة والأخبار المفجعة، عيناً على غزة وأخرى على الضفة الغربية، والعدو واحد يمارس القتل والتدمير في مختلف مناطق فلسطين.

■■■

أفتح شبكة الإنترنت بعد قطع مسافات للوصول إلى ملقم الشبكة، يحدث صوت الماسنجر رنيناً متصلاً، دليلاً على كثرة الرسائل الإلكترونية، أفتح المحادثة مع ابني الأكبر المهاجر إلى بلجيكا، وأكثر تلك الكلمات: أين أنتم؟ ماذا حدث لبيتنا؟ لماذا لا تردون عليّ؟ أين أمي؟ أين جدي؟

هل باتت الإنترنت التقنية الوحيدة التي تجعلنا نحسّ بأننا لم نرجع للوراء خمسين عاماً، كما قال وزير الدفاع الإسرائيلي غالانت منذ اليوم الأول للحرب؟ ربما بتنا أسارى لهذا القول، لكننا في غزّة ما زلنا نمتحن أنفسنا، بأننا أصحاب حق وطلّاب حرية، ومهما عاند المخرز في الإمعان في لحمنا، متقصداً زيادة الآلام والأوجاع، إلا أن اللحم يشد بعضه بعضاً حتى يلتهم المخرز.

هذا الألم المتجدد يجعلنا نقف مكتوفي الأيدي، ماذا نفعل؟ وكيف سينتهي؟ ودعوات إلى الخروج من الجحيم قبل إغلاق المعبر، وهذا يحيلنا على نقاش احتدم بين فريقين من الشباب، وأنا بينهم، ففريق يقول: يجب التشبث بالأرض، والاحتلال إلى زوال، وفريق يقول: نحن الوطن، والوطن حفاظ على الأرواح، سنهاجر لنعيش حياة كريمة، ولسان حالهم؛ سنخرج من الجحيم بأي ثمن.

وأنا مطرق رأسي نحو الأرض، وسؤال أحدهم: ما رأيك في ما قلنا؟ أجبت متنهداً: هل على هذه الأرض ما يستحق الحياة؟

شجاع الصفدي شاعر

كل شيء ينهشه النقصان

يقول شخص ما، تشابهت الأنوثة والذكورة في وظائفها. أبتسم وأخبره أن هذا جزء من قصيدة نزار قباني، فيجادلني أن نزار كانت لديه بلقيس الجميلة، تحفزّه ليكتب الشعر، أما «بلقيساتنا» بسبب الحرب أضحوا «جعفر».

مؤلم أم مضحك، لم أعد أفرق بين الأمرين، هناك كثير من الألم المضحك، والضحك المؤلم، النساء لسن على ما اعتدن عليه من حياةٍ واهتمام، حياة النزوح شاقة للحد الذي يجعل الشعور بالأنوثة أو رعايتها محض هراء.

تقول صديقة: أمنيتي أن أنام. تنام وتحظى ببعض الخصوصية، تستلقي دون أن يفاجئها دخول أي شخص، تتمدّد وتتمطى مثل قطة مثلاً، غير آبهة بأن هناك اختراقاً لخصوصيتها في أي لحظة.. أحدهم يضحك ويحمر وجهه، يفكر بمشروع خيام للخلوة الشرعية، ما رأيك أن تشاركني؟

الخيام تكلفتها باهظة، وتوصيل المياه أيضاً، ويستمر في سرد فكرته، يحتاج شريكاً لديه المال، اقتطاع مساحة على شاطئ البحر منعزلة قليلاً عن مراكز الإيواء، ونصب ثلاث خيام، تحويطها جيداً مع الحرص على التباعد، وتخصيصها للتأجير، مع الحفاظ على الخصوصية، أسمع ذلك وأقهقه، فلا يروقه الأمر، هل تظنني أمزح؟ يتحدث صاحبي بجدّية، هذا مشروع ناجح، ثمانية أشهر لم يختلِ رجل بزوجته، ونحن نقدم خدمة فندقية شرعية وفقط نستضيف الأزواج بعد التأكد من الهويات وعقد الزواج.

لم يتركني إلا مع وعد بأن أفكر بالأمر، وبينما مضيتُ في طريقي، كان يشغل تفكيري أمر آخر، كم سنة تستمر وتبقى حياة الخيام، الناس لم تستيقظ بعد من هول النكبات المتلاحقة، كل شيء سيبقى معلقاً بيد الاحتلال مثل الريموت كنترول، أغلق افتح، هل هذه أهدافنا؟

من نحن؟ أهدافنا لا تعني أحداً، إنها شيء طفيلي، هل الطفيليات تُرى بغير المجهر؟ تفكيرك متطرف، أقول لنفسي، كن متفائلاً، استمع لما يقوله الدويري وقادتنا الميامين لعلك تصحو من غفلتك.

■■■

وصلت إلى مكان يتوفر فيه الإنترنت، كلّ شيء ضوضاء، كنت بحاجة لقراءة شيء ما بتركيز، فشلتُ، ذهبت إلى السوق لأطمئن على أبنائي، أصابتني لوثة ما بين البكاء والضحك، بينما أتأمل الوجوه، وأتنقل بناظري بين أبنائي والبسطات والناس، غادرت المكان دون هدف، عدت إلى مكان النزوح، صراخ على اللاشيء، هذا يعترض على ذاك، هذه تلعن تلك، اتهامات صرخات، خلافات، الجنون بعينه يتجسد في كل مكان. تذكرتُ الصديقة التي تريد أن تنام، أريد أن أفكر، أريد العزلة، خرجت باتجاه البحر، سرقت ركناً قصياً، وتمددت مع أفكاري الجنونية، تذكرت وعدي لصاحبي بأن أفكر في المشروع، هل يليق حقاً إنشاء مشروع خيام فندقية للخلوة الشرعية؟

لا يتناسب الأمر معي من حيث المبدأ، تجب إعادة صياغة المشروع، قهقهتُ كالمجنون عندما تذكرت صياغات التفاوض في الدوحة والقاهرة، والإضافات والتعديلات، وما بين رفض وقبول! فجأة ارتطمت بساقي قطعة من الخشب، أحدهم طارت منه بينما يقطع الأخشاب، نظرت بغضب، تمتم بشيء غير مفهوم يشبه الاعتذار، علي قبول ذلك، هذا أقصى ما يمكن أن يقدم زوج غاضب لا تتوفر له خيمة للخلوة، قهقهت مجدداً، نظر لي الرجل وقال: بيعوض الله.

قفزت لذهني فكرة معدلة، خيام للعزلة! إنه أمر أرقى من خيام للخلوة، أليس كذلك؟

من يرغب بالعزلة؟ لا أعرف هل يقبل صاحبي شراكة من هذا النوع، أم أن خيام العزلة مشروع فاشل، زبائنه من الكتاب والشعراء الفقراء، ولا جدوى منهم!

يقول هاجس: هل تنتهي الحرب؟ يحتاج التفكير لخيمة عزلة.

ترى ما الأنجع؟ خيمة للعزلة أم للخلوة؟

■■■

حزيران/ يونيو، إنه شهر مرتبط بالمآسي،

عمل للفنان الفلسطيني صبحي قوتة

هناك أشهر ليست عاطفية، تشبه رجلاً غليظ الطبع يترك ذكرى سيئة لكل من يمر في حياتهم. نحن الآن في لُجّة حزيران، نحن الآن في المنفى، ينتصف الليل، بينما رجل عاقل متزن يفكر في الانتحار. هل يمضي بالطريقة القديمة؟ الشرايين تخذل أحياناً، هذه الطريقة باتت تقليدية. ربما بضع حبات من عقاقير منومة، أو ربما مثل صديق سافر مبكراً، قرر الاختناق فحسب، أحاط رأسه بقطعة من النايلون ونام. الأمر ليس بذلك التعقيد، في غزة بضع خطوات تفصل المرء عن حتفه المجيد.

عليّ أن أذهب إلى السوق، النهايات لها موعد لا يجب أن نفرضه، هناك نص لم يكتمل بعد، هناك لقاءٌ يَنقُص العمرَ، كيف يمضي المرء إلى خاتمةٍ وقد أعطى موعدًا على العشاء لشخص ما! يكفي أن ينتظرك أحدهم لتقرر ألا تموت؟

مددتُ يدي للأعلى، الضوء الخافت جعلها وحشاً يتربص بعنقي، الهواجس في الحرب مجنونة، رأيت أصابعي طائرة صغيرة على الحائط، حركتها بحدة فبَدت كأنها تنقضّ على هدفٍ ما! ربما تجتث قلبي، أو تعثر على الطفل داخلي فتقطع أوصاله، تلك الطائرات فكرتها مرعبة، حتى تلك التي تبدو أشباحاً وخيالات على الجدران، جميعها تصنع الموت. إذن هل ينتحر العاقل؟ أغمضت عينيّ لأغيّر المشهد، لكن الذاكرة مكتظة بالصور، الصور تصير لها نصالٌ حادة عندما تصبح شاهد الإثبات الوحيد على الجريمة.

كم موتاً يحمل حزيران؟

يقول صديقي عبر الهاتف: لا يمكن أن تتخيل عدد من رحلوا، ستفاجأ عندما تسأل عن فلان، وعن فلان، الجميع يقف في طوابير الموت، ينتظر فحسب. أتململ قليلاً، يأتي صوته كأنه يبتسم: أعرفك عجولاً، لا تحب الانتظار، لو كانت هناك واسطة أو رشوة لعجلّت الأمر.

لم يعد صديقي رجلاً مرحاً، وأنا كذلك، أصبحت لا أجيد فهم النكات؛ الضحك المصطنع يرهق القلب، وقلبي لديه موعد على العشاء، أخرته الحرب، هل يُقدِم المرء على الرحيل دون أن يعتذر؟

■■■

في مثل هذه الأيام يتجهز الناس للعيد، يكون كل شيء مبهجاً، التكبيرات، الزغاريد، الأغاني، زحام خانق لكنه محبب. لكن أمامي الآن زحامٌ بلا معنى، على ناصية المخيم، أقف كمن مسّه السحر، أشعر أن نواحاً ينزف في أذني، وكأنني جزء من مشهد في أحد أكثر أفلام الرعب إثارة، صبيٌ يسرق شيئاً ما ويركض، يندفع نحوه العشرات مثل الزومبي، ينالون منه، يُخال لي أن كلاً منهم أخذ قطعة من لحمه ومضى، هكذا كانت أسنانهم حمراء وشفاههم دامية.

الزومبي أيضاً ضحايا، سبق أن عضّهم ضحية مثلهم، إنها سلسلة من المجرمين الضحايا، والضحايا المجرمين.

يقولون: «على ناصية الحلم قف وفكر»، ما الذي قد يفكر فيه رجل يوشك على الانهيار؟ أعرف رجلاً إحدى مصائبه أن «الغالون» الذي يجلب به الماء لأسرته أصبح مثقوباً.

هل تقزمت المصائب في الحرب؟ من السخافة أن تعتبر الثقب أمراً هيّناً، إنها مصيبة، مصيبة انعدام البدائل. لم تتقزم المصائب في الحرب، لكن خسر الناس كل الأشياء العظيمة، تعاظمت الصغائر.

ما زلت حياً، أليس عظيماً؟ يمكن قول الكثير من الشعر حول قيمة الروح، لكن في عصر الزومبي الأرواح بلا قيمة، الفرق بينك وبين الآخرين «عضة»! هل تجيد تحصين عنقك؟

أمشي بحذر، متجنباً الزحام، تذكرت فيلماً عربياً قديماً، كان البطل الطيب يستخدم طاقية الإخفاء ليحقق شيئاً من العدالة، لكن عدوه الشرير عرف السر، سرقها ليعيث فساداً، يسرق المال، وينتقم من الأبرياء الذين ساندوا الطيّب.

أرى صِبيةً ملثمين يضربون أناساً بالهراوات، أفواج من الزومبي تتقدم نحوهم، تصير الهراوة بندقية فجأة وتطلق النار، لكن الأنياب تبرز أكثر، لم يعد هنالك ما يخيف الموتى الأحياء. دائماً في كل فيلم رعب هناك أبطال يقاتلون حتى النهاية، يرفضون الانضمام لقطيع الزومبي، لكن هؤلاء فرصتهم ضئيلة، لأن المخرج يريد مزيداً من الإثارة، يريد للمُشاهد أن يرى أقرب الأبطال يسقط أمام «عضة»، وينضم لفريق الناهشين!

خدعوك فقالوا: «أنت الآن حر»، لكنهم لم يذكروا الجانب المظلم، أنت حر ما بين خيارات ضيقة وضِعت لك، ليست من بينها الحرية! الأمر يشبه أن تُمنح اختيار لون «بدلة» الإعدام قبل إنفاذ الحكم! ما الجدوى إن كان الحكم غير قابل للاستئناف؟

لا جدوى من كل ذلك، لقد وصلت إلى محطتي اليومية، وعليّ أن أكمل يومي، هذا تعبير سخيف، في غزة ليس من حقك أن تكمل شيئاً، هنا غزة، حيث كل شيء ينهشه النقصان.

هناك أشهر ليست عاطفية، تشبه رجلاً غليظ الطبع يترك ذكرى سيئة لكل من يمر في حياتهم